كومنولث الجمهوريات المستقلة..إلى أين؟

08-6-2005

لقد ظلت روسيا على مدار الأربعة عشر عاماً الماضية هي القوة المهيمنة والمحركة لتحالف دول الكومنولث، الذي يضم اثنتي عشر جمهورية من الجمهوريات الخمس عشرة السوفيتية السابقة، والذي سعت موسكو من خلاله للعب دور الأخ الأكبر، وتدعيم نفوذها الاقتصادي والسياسي والعسكري في منطقة آسيا الوسطي والقوقاز، ولكن هذه الجمهوريات بدأت تدرك أن موسكو لم يعد لديها ما تقدمه لها، وأنه لم تعد هناك جدوى للاستمرار في عضوية هذه المنظمة، التي لم تفلح في مساعدتها على إصلاح أحوالها الاقتصادية، أو حتى تسوية نزاعاتها السياسية الداخلية والبينية.

بقلم عبدالله صالح

بعد أكثر من عقد من الاجتماعات، التي أسفرت عن توقيع نحو 34 اتفاقية للتعاون السياسي والاقتصادي والأمني، كشفت القمة الأخيرة التي استضافتها العاصمة الجورجية تبليسي في 3 يونيو الجاري أن الدول الأعضاء بكومنولث الجمهوريات المستقلة عن الاتحاد السوفيتي السابق صارت أكثر إحباطا، بسبب العجز عن إحراز أي تقدم على صعيد التكامل الاقتصادي، وتسوية النزاعات الداخلية والبينية، وأكثر تطلعاً وحماساً للانضمام إلى المؤسسات الأمنية والاقتصادية الأوربية، وعلى رأسها "الناتو" والاتحاد الأوربي.

تأسيس كومنولث الجمهوريات المستقلة C I S كان بمثابة محاولة من موسكو للحيلولة دون انفراط عقد الجمهوريات السوفيتية السابقة، والحفاظ على النفوذ السياسي والاقتصادي والعسكري لروسيا في منطقة البلقان وآسيا الوسطي، ولكن تصاعد التوترات داخل هذا التجمع خلال السنوات الأخيرة، وفشل مؤسساته في تحقيق قدر معقول من التكامل الاقتصادي، وعجزها عن تسوية النزاعات الداخلية والحدودية فيما بين الدول الأعضاء، أدى إلى تزايد الخلافات والانشقاقات بين زعماء هذه الجمهوريات، وزيادة شعور معظم الدول الأعضاء بأنها لا تستفيد كثيراً من هذا التحالف، وأن هناك شركاء آخرين غير موسكو أكثر جاذبية بالنسبة لها.

وكان هدف الكومنولث، الذي أنشئ عام 1991 وضم كلا من روسيا، وأوكرانيا وروسيا البيضاء، المعلن هو مساعدة الجمهوريات السوفييتية السابقة للتغلب على المشكلات التي تواجهها في أعقاب تفكك الإمبراطورية السوفييتية، ورغم رفض جورجيا المشاركة في تأسيس هذا التجمع، إلا أن الرئيس الجورجي إدوارد شيفاردنادزة اضطر إلى الموافقة على الانضمام له بعد عامين من إنشائه، في محاولة لإنقاذ بلاده من الحرب الأهلية التي اندلعت بها، ولضمان مساندة روسيا له في نزاعه مع أبخازيا. هذا الاتحاد الكونفيدرالي كان يستهدف بالأساس تسهيل انتقال الجمهوريات السوفيتية لمرحلة ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والسعي لخلق تجمع قريب الشبه بالاتحاد الأوربي، ترتبط دوله بعملة واحدة وتلغى الحواجز الجمركية فيما بينها، بالإضافة إلى توفير الدعم العسكري للدول الأعضاء عند الحاجة، وهذه النقطة الأخيرة هي التي شجعت جورجيا على الانضمام لهذا التجمع، خاصة مع تصاعد خلافاتها مع أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية.

وكان الدور الأساسي لجورجيا في تجمع دول الكومنولث هو ضمان المساعدة الروسية في تسوية النزاعات العسكرية التي تشهدها المنطقة، وقد ساعدت جورجيا بدرجة كبيرة في إنشاء قوات خاصة لحفظ السلام في الدول الأعضاء بالتجمع، ولكن بعد مرور أكثر من 12 عاماً على انضمام جورجيا، باتت القوى السياسية الحاكمة والمعارضة في تبليسي تعتقد في عدم جدوى استمرار العضوية بهذا التجمع. منذ تولي الرئيس ميخائيل ساكاشفيلي السلطة في جورجيا، شهدت علاقات بلاده مع روسيا توترات عديدة، ظهرت بوضوح خلال اجتماع القمة في أغسطس 24، خاصة مع الإعلان عن مشروع السكك الحديدية بين روسيا وأبخازيا، هذا المشروع الذي جعل محور حديث ساكاشفيلي وبوتن خلال هذا الاجتماع هو الجدل حول المصالح الروسية في الجمهوريات المستقلة، ورغبة جورجيا في مراجعة الاتفاقية الخاصة بالقواعد العسكرية الروسية في جورجيا، ولهذا لم يكن رفض ساكاشفيلي حضور القمة غير الرسمية لدول التجمع في موسكو في 9 مايو الماضي بمثابة مفاجأة لأحد.

على الرغم من إعلان دول المنظمة عن تبنيها لأهداف جديدة تتوافق مع تحديات المرحلة المقبلة، مثل تفعيل جهود التكامل الاقتصادي، وايلاء مزيد من الاهتمام للقضايا ذات الأولوية العاجلة مثل نزاعات الحدود، إلا أن ما تحقق من هذه الأهداف يكاد لا يذكر، حيث فشلت جهود إنشاء منطقة التجارة الحرة، والتي كان مقرراً لها عام 25 ، بل إن الدول الأعضاء رفضت أثناء القمة الأخيرة في تبليسي، الموافقة على مهلة جديدة لإقامة منطقة التجارة الحرة، وربما كان ذلك إدراكاً منها لحقيقة أن حجم تجارتها البينية متواضع للغاية، مقارنة بحجم تجارة كل منها مع الدول الغربية الرئيسية مثل ألمانيا والولايات المتحدة. النزاعات المستمرة داخل جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، وفيما بينها، هي مثال آخر صارخ لفشل هذا التجمع.ففي عام 1994وقعت الدول الأعضاء معاهدةً للأمن الجماعي كانت بمثابة تحالف عسكري لضمان التسوية السلمية للنزاعات الإقليمية، وتشكيل جبهة لحماية هذه الجمهوريات من التغلغل الأمريكي والغربي في آسيا الوسطي والقوقاز. ولكن مع حلول موعد تجديد الاتفاقية بعد خمس سنوات، أعلنت كل من أذربيجان، وجورجيا وأوزبكستان رفضها الاستمرار في هذا التحالف العسكري، بسبب فشله في التعامل مع النزاعات الداخلية والإقليمية، فضلاً عن عدم رضاها عن سياسات موسكو.

لقد أصبح لدى الدول الأعضاء شعور عميق بأن هذا التجمع لم يعد يحقق لها مصلحة اقتصادية أو أمنية تذكر، بعد أن انفصمت الرابطة الإيديولوجية التي كانت تجمع بينها مع انهيار الاتحاد السوفيتي، وظهر جلياً عمق الخلافات السياسية القائمة، وتدني الروابط الاقتصادية والتجارية البينية.ومن جانبها ، كما بدأت روسيا تقلل من أهمية هذا التجمع، حيث أكد الرئيس الروسي بوتين في أعقاب اجتماعات القمة الأخيرة في تبليسي أنه كانت مجرد وسيلة لضمان "انفصال آمن" للجمهوريات المستقلة عن الاتحاد السوفيتي السابق.

وظلت روسيا على مدار الأربعة عشر عاماً الماضية هي القوة المهيمنة والمحركة لتحالف دول الكومنولث، الذي يضم اثنتي عشر جمهورية من الجمهوريات الخمس عشرة السوفيتية السابقة، والذي سعت موسكو من خلاله للعب دور الأخ الأكبر، وتدعيم نفوذها الاقتصادي والسياسي والعسكري في منطقة آسيا الوسطي والقوقاز، ولكن هذه الجمهوريات بدأت تدرك أن موسكو لم يعد لديها ما تقدمه لها، وأنه لم تعد هناك جدوى للاستمرار في عضوية هذه المنظمة، التي لم تفلح في مساعدتها على إصلاح أحوالها الاقتصادية، أو حتى تسوية نزاعاتها السياسية الداخلية والبينية.